حلم تحقق

إبَّـان الدولة الأمويـة في الأندلس كان هنـاك ثلاثة من الشبـاب يعملون حمّارين، فهم يحملـون البضائع للناس من الأسـواق إلى البيوت على الحمير، وفي ليلة من الليالي، وبعد يـوم من العمل الشاق، تناولوا طعـام العشاء، وجلس الثلاثة يتسامـرون، فقـال أحدهـم، واسمـه «محمـد: افترضا أني خليفة، فماذا تتمنيان؟

فقالا: يا محمد، إن هذا غير ممكن.

فقال: افترضا جدلًا أني خليفة.

فقـال أحدهم: هذا مُحال، وقـال الآخر: يا محمد، أنت تصلح حمّارًا، أما الخليفة فيختلف عنك كثيرًا.

قال محمد: قلت لكما: افترضا جدلًا أني خليفة.

وهـام محمد في أحلام اليقظة، وتخيل نفسه على عرش الخلافة، وقال لأحدهما: ماذا تتمنى أيها الرجل؟

فقال: أريد حدائق غنّاء.

وماذا بعد؟

قال: إسطبلًا من الخيل.

وماذا بعد؟

قال: أريد مئة جارية.

وماذا بعد أيها الرجل؟

قال: مئة ألف دينار ذهبًا.

ثم ماذا بعد؟

يكفي ذلك يا أمير المؤمنين.

كل ذلك، ومحمد بن أبي عامر يسبح في خياله الطموح، ويرى نفسه على عرش الخلافة، ويسمع نفسه، وهو يعطي العطاءات الكبيرة، ويشعر بمشاعر السعادة، وهو يعطي بعد أن كان يأخذ، وهو ينفق بعد أن كان يطلب، وهو يأمر بعد أن كان ينفذ، وبينما هو كذلك التفت إلى صاحبه الآخر، وقال: ماذا تريد أيها الرجل؟

فقال: يا محمد، إنما أنت حمّار، والحمار لا يصلح أن يكون خليفة!

فقال محمد: يا أخي، افترض جدلًا أنني الخليفة، ماذا تتمنى؟

فقال الرجل: أن تقع السماء على الأرض أيسر من وصولك إلى الخلافة، فقال محمد: دعني من هذا كله، ماذا تتمنى أيها الرجل؟

فقال الرجل: اسمع يا محمد، إذا أصبحت خليفة، فاجعلني على حمار، ووجِّه وجهي إلى الوراء، وأمر مناديًا يمشي معي في أزقة المدينة، وينادي: أيها الناس، أيها الناس، هذا دجال محتال من يمشي معه، أو يحدثه أودعته السجن.

وانتهى الحوار، ونام الجميع، ومع بزوغ الفجر استيقظ محمد، وصلى صلاة الفجر، وجلس يفكر. صحيح الذي يعمل حمَّارًا لن يصل إلى الخلافة، فكر كثيرًا ما الخطوة الأولى للوصول إلى الهدف المنشود، فتوصل إلى قناعة رائعة جدًّا، وهي تحديد الخطوة الأولى، حيث قرر أنه يجب أن يبيع الحمار، وفعلًا باع الحمار، وانطلق بكل إصرار وجدّ، يبحث عن الطريق الموصل إلى الهدف، وقرر أن يعمل في الشرطة بكل جدّ ونشاط.

بذل محمد الجهد الذي كان يبذله حين كان حمّارًا في عمله الجديد، فأعجب به الرؤساء والزملاء والناس، وترقى في عمله، حتى أصبح رئيسًا لقسم الشرطة في الدولة الأموية في الأندلس.

ثم يموت الخليفة الأموي، ويتولى الخلافة بعده ابنه هشام المؤيد بالله، وعمره في ذلك الوقت عشر سنوات، هل يمكن لهذا الطفل الصغير أن يدير شؤون الدولة، فأجمعوا على أن يجعلوا عليه وصيًّا، ولكن خافوا أن يجعلوا عليه وصيًّا

مـن بني أميـة، فيأخذ الملك منه، فقـرروا أن يكون مجموعة من الأوصياء من غير بني أمية، فاختير لذلك محمد بن أبي عامر، وابن أبي غالب، والمصحفي.

وكان محمد بن أبي عامـر مقربًا إلى صبح أم الخليفة، واستطاع أن يمتلك ثقتها، ووشـى بالمصحفي عندها، فأزيل من الوصاية، وزوّج محمد ابنه بابنة ابن أبي غالب، ثم أصبح بعـد ذلك هو الوصي الوحيد، فاتخذ مجموعة من القرارات؛ فقـرر أن الخليفـة لا يخـرج إلا بإذنـه، وقرر انتقـال شؤون الحكم إلى قصره، وجيّش الجيوش وفتح الأمصار، واتسعت دولة بني أمية في عهده، وحقق من الانتصارات ما لم يحققه خلفـاء بني أميـة في الأندلس، حتى إن بعض المؤرخين عدّوا هـذه الحقبة حقبة انقطاع في الدولة الأموية، وسميت الدولة العامريـة. هكـذا استطاع الحاجـب المنصور بـن أبي عامر بتوكله على الله، واستغلاله القدرات الكامنة التي منحه الله إياها أن يحقق أهدافه.

القصـة لم تنتهِ بعـد، ففي يوم من الأيـام، وبعد ثلاثين سنـة مـن بيـع الحمـار، والحاجـب المنصـور يعتلـي عرش الخلافـة، وحوله الفقهاء والأمـراء والعلماء، تذكر صاحبيه الحمّاريـن، فأرسل أحـد الجند، وقال له: اذهـب إلى مكان كذا، فإذا وجدت رجلين صفتهما كذا وكذا، فأتني بهما.

ووصـل الجندي، ووجـد الرجلين بالصفـة نفسها، وفي المـكان نفسه، ومقرهما واحد، ومهاراتهمـا واحدة، بالعقلية نفسها.

قال الجندي: إن أمير المؤمنين يطلبكما.

فقـالا: أمير المؤمنـين! إننا لم نذنب. لم نفعـل شيئًا، ما جرمنا؟

قال الجندي: أمرني أن آتي بكما. ووصلا، ثم دخلا إلى الخليفة.

قالا باستغراب: إنه صاحبنا محمد.

قال الحاجب المنصور: أعرفتماني؟

قالا: نعم، يا أمير المؤمنين، ولكن نخشى أنك لم تعرفنا.

قـال: بل عرفتكما، ثم نظر إلى الحاشية، وقال: كنت أنا وهـذان الرجلان سويًّا قبل ثلاثين سنة، وكنا نعمل حمّارين، وفي ليلـة مـن الليالي جلسنـا نتسامر، فقلت لهمـا: إذا كنت خليفة، فماذا تتمنيان؟ فتمنيا، ثم التفت إلى أحدهما، وقال: ماذا تمنيت يا فلان؟ قال الرجل: حدائق غنّاء.

فقال الخليفة: لك حديقة كذا وكذا.

وماذا بعد؟

قال الرجل: إسطبلًا من الخيل.

قال الخليفة: لك ذلك، وماذا بعد؟

قال: مئة جارية.

قال الخليفة: لك مئة من الجواري، ثم ماذا؟

قال: مئة ألف دينار من الذهب.

قال: هو لك، وماذا بعد؟

قال الرجل: كفى يا أمير المؤمنين.

قال الحاجب المنصور: ولك راتب مقطوع - يعني من دون عمل - وتدخل عليّ بغير حجاب.

ثم التفت إلى الآخر، وقال له: ماذا تمنيت؟

قال الرجل: أعفني يا أمير المؤمنين.

قال: لا، والله حتى تخبرهم.

قال الرجل: الصحبة يا أمير المؤمنين.

قال: حتى تخبرهم.

فقال الرجل: قلت: إن أصبحت خليفة، فاجعلني على حمار، واجعل وجهي إلى الوراء، وأمر مناديًا ينادي في الناس: أيها الناس، هذا دجال محتال من يمشي معه، أو يحدثه أودعته السجن.

قال الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر: افعلوا به ما تمنى؛ حتى يعلم (أن الله على كل شيء قدير).

obeikandi.com

خاطـرة: هل تعلم مـا الحمار الـذي يجب أن نبيعـه جميعًا؟ هـو تلك القناعات التـي يحملها الكثير، مثـل: لا أستطيع، لا أصلـح، أنا لا أنفـع في شيء، وأن نستبدل بهـا قولنا: أنا أستطيع بإذن الله:

إذا القـومُ قـالُوا مَـنْ فتى خِلْتُ أننـي

عـــنيتُ فلـم أكســـلْ ولـم أتبـــلَّدِ

هل يمكن أن تحقق أحلامك، وأن تصل إلى أهدافك؟ قل وبكل ثقة: نعـم، إن شاء الله، وتذكر دائمًا: (أن الله على كل شيء قدير). وقول الحبيب ﷺ عن ربه في الحديث القدسي: «**أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء**»[1].

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥).